الجزء الثالث

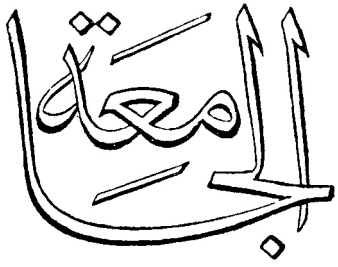

السنة الرابعة

مجلة علمية تهذيبية تاريخية صحية

الاسكندرية ـ مايو (ايار) سنة ١٩٠٣ ـ صفر سنة ١٣٢٠

مشاهير المتقدمين والمتاخرين

مشاهير الغرب

الملك ادورد * الرئيس لوبه

الملك ادورد والرئيس لوبه هما اليوم الرجلان اللذان يمثلان ارقى امم الارض . وحكومتهما (مع حكومة الولايات المتحدة) ارقى الحكومات في العالم . ولمناسبة التقائهما في باريز بعد سياحة الرئيس لوبه في الجزائر وتونس يحسن ان نصدر هذا الجزء بشيء من ترجمتهما

***

الملك ادوار ولد الملك ادوار في سنة ١٨٤١ ويوم ولادته ساد الفرح في انكلترا كلها لان بكر امه كان بنتاً . وقد صرف ابوه همه الى تحويل ميله منذ صغره الى المعارف والفنون تنبيهاً لليل الادبي فيه لان امته امة علم وادب . فشبّ الامير ادور ادبياً مطلعاً .

الاَّ ان امه المرحومة فيكتوريا وضعته بمعزل عن المعيشة الملوكية الرسمية اي لم تكن تسمح له بالتداخل في شأن من الشؤون لئلا يجرّ ذلك عليه الانتقاد واللوم . ولذلك كان الامير يقول: ان ابن اختي الامير غيليوم (يريد الامبراطور غيليوم وهو ولي عهد) يدّرك كل شيء ويتداخل في كل شيء اما انا فكأنني غير موجود . ولكن لما توفي ابوه جزعت الملكة فيكتوريا لوفاته جزعاً شديداً وانقطعت عن الحفلات الرسمية فصار نجلها الامير ادورد ينوب منابها فيها . ومع ذلك فقد كانت وظيفته مقصورة على الظهور في تلك الحفلات دون ان يتداخل في شيء من امور الدولة الرسمية احتراماً لارادة والدته التي لم يكن يخالف لها امراً

وكان من صفات الامير وهو ولي العهد كراهته للاستقبالات الرسمية ورغبته في ان يروح ويجيء في المدينة كما يريد دون ان يعرفه احد او يحفل به احد . ومن اقواله : انني اكون سعيدا جداً يوم اقدر اروح واجيء كما احب فلا يقال عني راح البرنس دي غال وجاء البرنس دي غال . او لعب البرنس دي غال الليلة وخسر مالاً لا يقدر على وفائه » وكان من المغرمين باقتناء الخيل وتضميرها للسباق وقد ربح جائزة دربي ثلاث مرات . وكذلك كان من محبي التأنق في اللبس وكثيرون من الباريزيين والباريزيات لا يزالون يذكرون نزهاته في حرش بولونيا في باريز بقبعة منحرفة على اذنه قليلاً كالشبان المرتاحين الى الحياة وسترة بزيّ جديد خاص به . وهذه السترة كانت لا تلبث ان تصير منذ ذلك اليوم زياً عمومياً (موضة) فيتهافت اهل التأنق على لبس سترة مثلها

ولكن لما توفيت المرحومة الملكة فيكتوريا والقيت على عاتقه اعباء الدولة الثقيلة تغير الامير تغيراً كلياً . فصار منظره رسمياً محضاً . ومنذ اول اسبوع رحب الشعب الانكليزي بملكه الجديد احسن ترحيب . غير ان الساسة باتوا يتساءلون : هل ان الملك ادوارد يجري في ملكه على سياسة وزرائه ام له آراء خصوصية يريد تحريك سفينة الدولة نحوها . فيظهر من الحوادث التي مرّت عليه الى الآن ان الملك ادوارد ملك جدي لا يترك نفسه آلة في ايدي وزرائه . فانه على ما يُقال هو الذي جعل الوزارة الانكليزية تصالح البوير على الشروط التي تمّ الاتفاق عليها . وهو ايضاً الذي حرّك سفينة الحكومة نحو صداقة فرنسا . ومما هو معروف عنه انه شديد الميل للفرنسويين خصوصاً لباريز لانه اقام فيها مراراً مدات طويلة وعرف اكابر رجالها وسيداتها خصوصاً في المجتمعات العليا . ومن اقوال بعض اخصائه عنه : ان ابتسامة باريز له تعادل عنده ابتسامة الدنيا كلها

وفي يقيننا ان باريز لا تكتفي بالابتسام له هذه المرة التي تحظى فيها بزيارة سلطان

السلطنة الانكليزية . لانه يظهر من الاخبار الواردة منها ونحن نكتب هذه السطور انها ستضحك له ابتهاجاً بزيارته ملءَ فيها . فعسى ان يكون في هذه الزيارة خدمة جديدة للسلم العام في العالم وازالة النفار من بين الامتين العظيمتين اللتين خلفتا الامة اليونانية والامة الرومانية

***

﴿ اميل لوبه ﴾ ولد اميل لوبه في مونتليمار في اقاليم فرنسا ونشأ محامياً ووكيلاً للدعاوى ولبث يتدرج من هذه الحرفة حتى وصل الى رئاسة الجمهورية . اي انه مرَّ في جميع الدرجات التي بينها وبين هذه الرئاسة . فكان عضواً في المجلس البلدي في بلدته ثم عمدة لها ثم موظفاً في الحكومة فنائباً في مجلس النواب فوزيراً فعضواً في مجلس الشيوخ فرئيساً لهذا المجلس . فتقدمه اذاً كان عبارة عن سير تدريجي مطرد بلا وثبة ولا عنف لانه كان عبارة عن نتيجة ارادة قوية وصبر شديد . وقد كان انتخابه لرئاسة الجمهورية في الاحوال التالية :

لما فُتحت مسألة دريفوس انقسمت فرنسا قسمين قسم يُدافع عن الجيش وقسم يطلب الحقيقة اي يطلب تبرئة دريفوس اذا كان بريئاً ولو ادى ذلك الى اهانة رؤساء الجيش الذين كانوا يؤكدون خيانته . وكان على رئاسة الجمهورية يومئذ المرحوم فليكس فور وكان من حزب الجيش وبعض الجمهوريين المعتدلين الذين كانوا يعضدونه اعتقاداً بخيانة دريفوس . فيظهر ان هذه الحادثة اثرت بالمرحوم فليكس فور فاصيب بداء السكتة من جرائها وبعضهم يقول انه مات مسموماً وهو حديث خرافة . فلما خلت رئاسة الجمهورية في ذلك الوقت الذي كان اشد اوقات الضيق على فرنسا عرف اعداء الجمهورية ان هذه هي ساعتهم . فزادوا في تنفير الشعب منها والحملة عليها . اما الجمهوريون فانهم اجتمعوا بسرعة غريبة لانتخاب رئيس الجمهورية . فوجدوا من مصلحة الجمهورية يومئذ ان يضعوا في رئاستها رجلاً جامعاً لصفتين: الاولى ميله الجمهوري المحض لكي لا يخون الجمهورية وينحاز الى اعدائها . والثانية الاعتدال واللطف والمسالمة التي لا بدَّ منها في منصب فوق الاحزاب كهذا المنصب . فوقع اختيارهم على المسيو اميل لوبه الرجل الكريم الجامع للصفتين معاً

ولما بلغ خبر انتخابه الى باريز قام حزب الناسيونااليست وقعد . وانتشر هذا الحزب على الطريق التي مرَّت بها مركبته قاصدة قصر رئاسة الجمهورية يصيحون : بناما بناما . يريدون بذلك تعيير الرئيس بانه كان له يد في قضية بناما المشهورة . مع ان المسيو لوبه لم يكن له يومئذٍ يدٌ الاَّ في دفن تلك الاقذار لئلا تنتشر رائحتها فتضر سمعة فرنسا نفسها . فاحتمل

المسيو لوبه مهاجمات واهانات اعداء الجمهورية بصبر غريب بالنسبة الى كبر سنه . ولكن كبر النفس لا تتوقف على كبر السن او صغرها . ولما اعترض المسيو ديروليد زعيم حزب الناسيوناليست الجيش وهو عائد من جنازة المرحوم فليكس فور وطلب من قائده ان يزحف معه الى قصر رئاسة الجمهورية لاخراج الرئيس الذي فيها واقامة جمهورية جديدة « للشعب من اجل الشعب » قابل المسيو لوبه في قصره هذا الخبر بالابتسام . ولكن لما حضر سباق اوتيل وهجم عليه احد ابناء الاشراف وضربه بعصاه على قبعته على مشهد من جميع الناس ذهب يومئذٍ هذا الابتسام وتحوّل الى جدّ غريب . فان الرئيس قال يومئذٍ لاحد اخصائه : انهم يصنعون بي هكذا ليحملوني على الاستعفاء ضعضعة لاركان الجمهورية ولكن فليعلموا انني سابق في منصبي مهما جرى لي

ثم كانت وزارة المسيو والدك روسو بطل الجمهورية والبرلمان الفرنسوي فجمع شمل الجمهوريين واضعف اعداء الجمهورية بمساعدة المسيو لوبه وبذلك انتصر هذا الرئيس اللطيف بصبره ورزانته وصار بعد تلك الاهانات والمهاجمات محترَماً في فرنسا كلها وصارت الملوك (كالقيصر والملك ادورد السابع) تتسابق لزيارته وهزّ يده

مشاهير الشرق

ملك شاه * نظام الملك

حين خروج الامة التركية من بلادها في اقاصي آسيا واكتساحها ما يليها من البلاد التي كانت في قبضة العرب والفرس اشتهر منها سلطان ووزير طبقت شهرتها الخافقين وفتحا اكثر بلاد آسيا وهما السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك . وفي ترجمة هذين الحاكمين عبرة للحكام وفائدة للقراء . لانه اذا صحّ كل ما روي عن ملك شاه من الخصال والمناقب وجب وضعه في مقدمة الملوك المدبّرين الذين اشتغلوا لترقية الحضارة والمدنية في الارض

السلطان الب ارسلان السلطان ملك شاه هو ابن السلطان الب ارسلان الذي خلف السلطان طغرلبك . ويوم وفاة هذا السلطان كان الب ارسلان صاحب خراسان ومعه نظام الملك وزيره والناس مائلون اليه فولوه دون سليمان بن داود جغري بك الذي عهد اليه السلطان طغرلبك بالسلطنة . فاتسع سلطان الب ارسلان حتى لُقب « بسلطان

العالم » وكان رفيقاً بالفقراء حكيماً متبصراً . قيل « ان بعض السعاة كتب اليه سعاية في نظام الملك وزيره وذكر ما له ما في ممالكه من الرسوم والاموال وترك هذه الورقة على مصلاّه . فاخذها فقرأها ثم سلّمها الى نظام الملك وقال له : خذ هذا الكتاب فان صدقوا في الذي كتبوه فهذب اخلاقك واصلح احوالك وان كذبوا فاغفر لهم زلتهم واشغلهم بهمّ يشتغلون به عن السعاية بالناس » قال ابن الاثير بعد سرده هذه الحكاية : وهذه حال لا يُذكر عن احد من الملوك احسن منها . وكان ألب ارسلان شديد العناية بكف الجند عن اموال الرعية . وقد بلغه يوماً ان بعض خواص مماليكه سلب من بعض الرستاقية ازاراً فاخذ المملوك وصلبه . فارتدع الناس من التعرض الى مال غيرهم . ولقد كانت هذه الشدة ضرورية بعد ما احاق ببغداد والبلاد من السلب والنهب على يد الجنود والعساكر

﴿ ملك شاه ونظام الملك ﴾ فعند وفاة ألب ارسلان اوصى ابنه ملك شاه بالاعتماد على وزيره نظام الملك فاعتمد عليه ملك شاه ولقبه القاباً جليلة من جملتها « اتابك » يعني الامير الوالد . فقام نظام الملك بهذا الامر احسن قيام

وكان نظام الملك رجلاً مقداماً . وقد كانت ولادته في سنة ٤٠٨ للهجرة في نوقان احدى مدينتي طوس . قال ابن الاثير « وقد زال ما كان لابيه من مال وملك وتوفيت امه وهو رضيع فكان ابوه يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبة حتى شبّ وتعلّم العربية وسرُّ الله فيه يدعوه الى علو الهمة والاشتغال بالعلم » ثم اتصل بخدمة علي بن شاذان متولي الامور ببلخ لداود والد السلطان الب ارسلان ثم اتصل بداود نفسه فاوصى به ابنه الب ارسلان

﴿ المشاكل الثلاث ﴾ ولما تولى ملك شاه السلطنة وعهد بوزارتها الى نظام الملك وجد نظام الملك نفسه لدى ثلاث مشاكل : المشكلة الاولى قيام الخليفة المقتدي بالله اماماً في بغداد والتفاف العرب حوله وما ينشأ عن ذلك عادةً من الاحتكاك بين الخلافة والسلطنة . والمشكلة الثانية هياج الجند ورغبتهم في ان تُطلق ايديهم في اموال الرعية ليأخذوا ما يريدونه منها . والمشكلة الثالثة تسكين الثورات واخضاع الخوارج في اطراف البلاد وتأمين السبل فضلاً عن فتح البلاد اللازم فتحها تأميناً على ما في اليد من الاملاك

﴿ المشكلة الاولى ﴾ اما المشكلة الاولى فقد اتخذ فيها نظام الملك سبيل اللين والمسالمة . فصار يُبالغ هو والسلطان في زيارة قبور الائمة والاولياء كقبر موسى بن جعفر وقبر معروف واحمد بن حنبل وابي حنيفة (رضه) وغيرها من القبور المعروفة . وفي ذلك قال ابن

ذكر ويه الواسطي يهنيء نظام الملك بقصيدة منها :

زرتَ المشاهد زورة مشهورة ارضت مضاجع من بها مدفونُ
فكأنك الغيث استهلَّ بتربها وكأنها بك روضة ومعين
فازت قداحك بالثواب وانجحت ولك الاله على النجاح ضمين

قال ابن الاثير في سنة ٤٧٩ « وعاد السلطان الى بغداد ودخل الى الخليفة فخلع عليه الخلع السلطانية ولما خرج من عنده بقي نظام الملك قائماً يقدم الى الخليفة اميراً اميراً . وكلما قدم اميراً يقول : هذا العبد فلان بن فلان واقطاعه كذا وكذا وعدة عسكره كذا الى ان اتى على آخر الامراء » وفي هذه الزيارة « فوّض الخليفة الى السلطان امر البلاد والعباد وامره بالعدل فيهم . وطلب السلطان ان يقبّل يد الخليفة فلم يجبه فسأل ان يقبّل خاتمه فاعطاه اياه فقبّله ووضعه على عينه وامره الخليفة بالعود فعاد . وخلع الخليفة ايضاً على نظام الملك »(١) فتأمل هذا الاحترام الجميل الذي كان السلاطين يقابلون به الخلافة وان كان في ذلك شيء كثير من ضروب السياسة

عرس جليل وزيادة في الاستيثاق من الخلافة رغب السلطان ملك شاه في تزويج ابنته الخليفة المقتدي بالله فتمَّ الاتفاق على ذلك بعد ممانعة الخليفة قليلاً وقد « نقل السلطان جهاز ابنته الى دار الخليفة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي . وكان اكثر الاحمال الذهب والفضة وثلاث عماريات وعلى اربعة وسبعين بغلاً مجللاً بانواع الديباج الملكي واجراسها وقلائدها من الذهب والفضة وكان على ستة منها اثنى عشر صندوقاً من فضة لا يقدر ما فيها من الجواهر والحلى وبين يدي البغال ثلاث وثلاثون فرساً من الخيل الرائعة عليها مراكب الذهب مرصعة بانواع الجوهر ومهد عظيم كثير الذهب » اما الخليفة فانه ارسل ابا شجاع وزيره الى زوجة السلطان تركان خاتون ام العروس لان السلطان كان يومئذٍ متغيباً في الصيد « وكان بين يديه (يعني اباشجاع) نحو ثلاثمائة موكبية ومثلها مشاعل . ولم يبقَ في الحريم دكان الاَّ وقد أُشعل فيه الشمعة والاثنتان واكثر من ذلك . وارسل الخليفة مع (ظفر) خادمه محفة لم يُرَ مثلها حسناً . وقال الوزير لتركان خاتون (ام العروس) سيدنا ومولانا امير المؤمنين يقول ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها . وقد اذن في نقل الوديعة الى داره . فاجاب بالسمع والطاعة . وحضر نظام

(١) وقال ابن خلكان « دخل نظام الملك على الخليفة المقتدي بالله فاذن له في الجلوس بين يديه وقال له يا حسن رضي الله عنك برضاء امير المؤمنين عنك »

الملك فمن دونه من اعيان دولة السلطان وكل منهم معه من الشمع والمشاعل الكثير . وجاء نساء الامراء الكبار ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وتحملها وبين ايديهن الشمع الموكبيات والمشاعل يحمل ذلك جميعه الفرسان . ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان بعد الجميع في محفة مجللة عليها من الذهب والجواهر اكثر شيء . وقد احاط بالمحفة مائتا جارية من الاتراك بالمراكب العجيبة وسارت الى دار الخلافة . وكانت ليلة مشهورة لم يُرَ ببغداد مثلها » ولكن ابنة السلطان لم يطل مقامها في حرم الخليفة اكثر من سنتين اذ في سنة ٤٨٢ « ارسل السلطان الى الخليفة يطلب ابنته طلباً لا بدَّ منه . وسبب ذلك انها ارسلت تشكو من الخليفة وتذكر انه كثير الاطراح لها والاعراض عنها فاذن لها في المسير فسارت في ربيع الاوّل وسار معها ابنها من الخليفة ابو الفضل جعفر بن المقتدي بالله » ولما وصلت الى اصبهان اقامت بها الى ذي القعدة ثم توفيت فجلس وزير الخليفة في بغداد للعزاء سبعة ايام واكثر الشعراء مراثيها في بغداد مقر الخلافة وفي اصبهان معسكر السلطان

المشكلة الثانية اما المشكلة الثانية وهي كف ايدي الجند عن اموال الرعية فقد لجأ فيها نظام الملك الى سياسة السلطان الب ارسلان وهي التشديد في معاقبة الاعتداء . فكبح بشدته جماح الجند كبحاً شديداً بعد ان كاد الجند يعود الى السطو كما كان يفعل في ايام السلطان طغرلبك وغيره . وفضلاً عن ذلك فان نظام الملك شغل الجند بالفتوحات والحروب الخارجية عن الفتن الداخلية

المشكلة الثالثة وبهذه الفتوحات والحروب الخارجية مدَّ ملك شاه ونظام الملك سلطنتها من « حدود الصين الى آخر الشام ومن اقاصي بلاد الاسلام في الشمال الى آخر بلاد اليمن . وحمل اليه (يعني الى ملك شاه) ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب وانقضت ايامه على امن عام وسكون شامل وعدل مطرد » « وكان منصوراً في الحروب ومغرماً بالعمائر فحفر كثيراً من الانهار وعمل الاسوار على كثير من البلدان وانشأ في المفاوز رباطات وقناطر . وهو الذي عمر جامع السلطان ببغداد وصنع بطريق مكة مصانع وغرم عليها اموالاً كثيرة خارجة عن الحصر وابطل المكوس والخفارات في جميع البلدان . وكانت السبل في ايامه ساكنة والمخاوف آمنة تسير القوافل مما وراء النهر الى اقصى الشام وليس معها خفير ويسافر الواحد والاثنان من غير رهب »

ومن ذلك يُعلم عظمة تلك الارادة القوية التي سكنت سائر الفتن بين العناصر والمذاهب المختلفة وبسطت رواق الامن في آسيا

المدرسة النظامية ومن اهم الامور التي صرف اليها نظام الملك فكره انشاء المدارس . ومن المدارس التي انشأها المدرسة النظامية الكبرى في بغداد التي اشتهرت اشتهار اعظم كليات اوروبا . وكان نظام الملك يربي ابنه فيها . وقد « شرع نظام الملك في بنائها في بغداد عام ٤٥٧ وفي عام ٤٥٩ جمع الناس على طبقاتهم ليدرس بها الشيخ ابو اسحق الشيرازي . فلم يحضر . فذكر الدرس ابو نصر بن الصباغ صاحب الشامل عشرين يوماً . ثم جاس الشيخ ابو اسحق يدرّس بعد ذلك . وكان الشيخ ابو اسحق اذا حضر وقت الصلاة خرج منها (لكي لا يصلي فيها)) وصلى في بعض المساجد » ذلك انه كان يقول « بلغني ان اكثر آلاتها غصب » يعني ان نظام الملك بناها بغصب الناس اشياءهم . وكان نظام الملك كلما قدم الى بغداد « يدخل اليها ويجلس في خزانة الكتب (اي مكتبتها) ويطالع فيها كتباً . وقد سمع الناس عليه بهذه المدرسة جزء حديث واملى جزءاً آخر » وممن اشتغلوا بالتدريس في هذه المدرسة بعد ذلك اكابر علماء العراق منهم حجة الاسلام الامام الغزالي حتى صارت في العراق بمنزلة الجامع الازهر في مصر . ويظهر ان الخلاف بين الحنابلة والاشاعرة اشتدّ في سنة ٤٧١ ودخل فيه مدرّسو هذه المدرسة وطلبتها فجرت بسبب ذلك فتن دموية فكتب ابو الحسن محمد بن علي بن ابي الصقر الواسطي الفقيه الشافعي الى نظام الملك في ابيات

يا نظام الملك قد * حُلَّ ببغداد النظام * يا قوام الدين لم * يبقَ ببغداد مقام
فاذا لم تحسم الدا * ء اياديك الحسام * ويكف القوم في بغ * داد قتل وانتقام
فعلى مدرسة فيها * ومن فيها السلام

فقدم حينئذ نظام الملك الى بغداد ودخل مدرسته النظامية والقتل بجوارها فسكن ثائر تلك الحركة . وكان يومئذ التوفيق بين العناصر والمذاهب مشكلة رابعة بذل نظام الملك جهده في حلها

مقتل نظام الملك قال ابن خلكان « ان نظام الملك وطّد المملكة لملك شاه فصار الامر كله لنظام الملك وليس للسلطان الاّ التخت والصيد . واقام على هذا عشرين سنة » ويظهر ان علو كلمة نظام الملك في المملكة الى هذا الحد اثار عليه غضب السلطان في نهاية الامر لا سيما وان خصمه تاج الملك كان يوغر عليه صدر السلطان دائماً . فبطش به السلطان كما بطش هرون الرشيد بالبرامكة والمنصور بابي مسلم الخراساني خوفاً وحسداً . وقد اغتنم ملك شاه لذلك اول الفرص . واليك البيان :

كان لنظام الملك حفيد يدبر شؤون مرو ويُدعى عثمان . ففي ذات يوم ارسل اليها ملك شاه رجلاً من اكابر مماليكه يُدعى قودن فتنازع هو وعثمان تنازعاً افضى الى ان فعل به عثمان فعلة نضرب عنها صفحًا . فذهب قودن الى السلطان شاكيًا مستغيثًا . فلما بلغ هذا الامر الى ملك شاه غضب وارسل الى نظام الملك يقول له « ان كنتَ شريكي في الملك ويدكَ مع يدي في السلطنة فلذلك حكم . وان كنتَ نائبي وبحكمي فيجب ان تلزم حدّ التبعية والنيابة » ثم ذكر له استيلاء اولاده على الكور وتطاولهم على شؤون الدولة . فحين بلغت نظام الملك هذه الرسالة غضب واجاب عليها بقوله « قولوا للسلطان ان كنتَ ما علمتَ اني شريكك في الملك فاعلم . فانك ما نلتَ هذا الامر الا بتدبيري ورأيي ـ قولوا له ان ثبات تلك القلنسوة (يعني قلنسوة السلطان) معذوق بهذه الدواة . وان اتفاقهما رباط كل رغيبة وسبب كل غنيمة . واذا أُطبقت هذا يعني الدواة) زالت تلك »

فلما بلغ هذا الجواب الى السلطان وقع وقعًا عظيمًا عنده فدبّر له على الارجح من قتله . وتفصيل ذلك ان نظام الملك كان يومًا في قرية قريبة من نهاوند يقال لها « سحنة » واذ اعترضه صبي ديلمي من الباطنية في صورة مستميح مستغيث وبيده ورقة فدنا منه نظام الملك ليتناولها فطعنه الصبي في فؤاده ثم فرّ فعثر بطنب خيمة فادركوه فقتلوه . واما نظام الملك فانه حُمل الى مضربه فمات لساعته

وكأنّ النظام بقوله ان دواته منوطة بقلنسوة السلطان قد نظر الى المستقبل . فان السلطان ملك شاه لم يعش بعده اكثر من خمسة وثلاثين يومًا . وكان سبب موته « انه اكل لحم صيد فخمّ وافتصدولم يستوفِ اخراج الدم » وبعد موتهما انحلت تلك الدولة الواسعة التي لم يملك مثلها احد من ملوك العرب بعد الخلفاء المتقدمين كما قال ابن خلكان ووقع السيف فيها . اما دفنهما فقد كان في اصبهان

وقد رثى الشعراء نظام الملك من ذلك قول شبل الدولة مقاتل بن عطيه

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزّت فلم تعرف الايام قيمتها ... فردّها غيرةً منه الى الصدف

عود الى الخليفة المقتدي بالله وقبل وفاة ملك شاه « بايع الخليفة المقتدي بالله لولده المستظهر بولاية العهد من بعده لانه كان الاكبر . فالزم السلطان الخليفة ان يخلعه ويجعل جعفرًا ابن بنته (التي تزوج بها الخليفة كما تقدم) ولي عهده ويسلم بغداد اليه ويخرج الخليفة الى البصرة . فشق ذلك على الخليفة وبالغ في استنزال السلطان عن هذا

الرأي فلم يفعل وطلب المهلة عشرة ايام ليتجهز فامهله . فقيل ان الخليفة في تلك الايام جعل يصوم ويطوى واذا افطر جلس على الرماد للافطار وهو يدعو الله على السلطان فمرض السلطان في تلك الايام ومات وكفى الخليفة امره »

نوادر عن اخلاق نظام الملك كان عالمًا كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت . « وكان اذا دخل عليه الامام ابو القاسم القشيري والامام ابو المعالي الجويني يقوم لهما ويجلس في مسنده كما هو واذا دخل ابو علي الفارمذي يقوم اليه ويجلسه في مكانه ويجلس هو بين يديه . فقيل له في ذلك فقال : ان هذين وامثالهما اذا دخلوا علي يقولون لي انت كذا وكذا ويثنون عليَّ بما ليس فيَّ فيزيدني ذلك عجبًا وتيهًا . وهذا الشيخ يذكر لي عيوب نفسي وما انا فيه من الظلم فتنكسر نفسي لذلك وارجع عن كثير مما انا فيه »

« وقيل كان ليلة يأكل الطعام وبجانبه اخوه ابو القاسم وبالجانب الآخر عميد خراسان والى جانب العميد انسان فقير مقطوع اليد . فنظر نظام الملك فرأى العميد يتجنب الاكل مع المقطوع فامره بالانتقال الى الجانب الآخر وقرّب المقطوع اليه فاكل معه . وكانت عادته ان يحضر الفقراء طعامه ويقربهم اليه »

ولما ولي ملكشاه السلطنة خرج عليه احد اعمامه فاسره ملكشاه وامر بقتله فطلب اليه عمه ان يعفو عنه وانفذ اليه خريطة مملوءة من كتب امرائه ليثبت له بذلك انهم هم الذين حملوه على الخروج عن طاعته . فاخذ ملكشاه الحقيبة ودفعها الى نظام الملك ليفتحها ويقراء ما فيها . فتناولها نظام الملك والقاها في كانون نار كان هناك فاحترقت الكتب وسكنت قلوب الامراء والعساكر ووطنوا انفسهم على خدمة ملكشاه بعد ان كانوا قد خافوا من الخريطة لان اكثرهم كان قد كاتبه . وكانت هذه معدودة من جميل آراء نظام الملك وكانت سببًا في ثبات قدم ملكشاه في السلطنة »

نوادر عن اخلاق ملك شاه كان ملك شاه يلقب بالسلطان العادل . ويروى ان رجلين من ارض العراق السفلى قصدا ملك شاه وشكيا اليه مصادرة احد العمال لهما بالف وستمائة دينار وكسره ثنيتي احدهما « فنزل السلطان عن دابته وقال « ليمسك كل واحد منكما بطرف كمي واسحباني الى خواجه حسن (يعني نظام الملك) فامتنعا من ذلك واعتذرا فاقسم عليهما الاّ فعلا فاخذ كل واحد منهما بكمٍّ من كميه ومشى معهما الى نظام الملك . فبلغ الخبر الى نظام الملك فخرج مسرعًا ولقيه وقبل الارض وقال ياسلطان العالم : ما حملك على هذا . فقال كيف يكون حالي غدًا عند الله اذا طولبتُ بحقوق

المسلمين وقد قلدتك هذا الامر لتكفيني مثل هذا الموقف . فان نال الرعية اذًى فانت المطالَب

لما خرج عليه اخوه سار ملك شاه ونظام الملك لقتاله « فاجتازا بقبر علي بن موسى» الرضى وبطوس فدخلا وصليا فيه واطالا الدعاء . ثم قال ملك شاه لنظام الملك باي شيء دعوت . قال دعوت الله تعالى ان ينصرك ويظفرك باخيك . فقال اما انا فلم ادعُ بهذا بل قلتُ اللهم انصر اصلحنا للمسلمين وانفعنا للرعية »

وسطا بعض الجنود على سوادي فغصبوه بطيخاً معه فلقيه ملك شاه يبكي . واذعرف الخبر بعث من يطوف في الجنود ليجيء بمن يجد عنده بطيخاً . ولما جاء الرجل وكان من امراء المماليك سأله من اين لك البطيخ فاجاب ان بعض الغلمان جاءوا به فقال السلطان جيئني بهم فذهب الامير وهرَّبهم ثم عاد وقال للسلطان انني لم اجدهم . فالتفت السلطان الى السوادي وقال له : هذا مملوك قد وهبته لك حيث لم يحضر القوم الذين اخذوا متاعك والله لئن خليته لاضربن رقبتك . فاخذه السوادي بيده فاضطر الامير ان يشتري نفسه منه بثلاثمائة دينار

وروي ايضاً انه « احضرت اليه مغنية وهو بالريّ فاعجب بها فاستطاب غناءها و رام منها ما لا يُرام فقالت ياسلطان اني اغار على هذا الوجه الجميل ان يُعذَّب بالنار فان الحلال ايسر و بينه و بين الحرام كلمة . فقال صدقتِ واستدعى بالقاضي فتزوجها منه

هذه خلاصة ترجمتي ذينك الرجلين العظيمين اللذين يحق للشرق ان يفتخر بهما